كلمة مدير مكتب تنسيق التعريب

د. عباس الصوري

إنه لمن دواعي الحمد والمنّ لله وحده أن نلتقي برحاب هذا المعهد العلمي العامر، الذي يجعل من التكوين البيداغوجي لرجال التربية ببلادنا شأنه ودأبه ومركز عنايته، كما يضع من جملة مقاصده ومبتغاه رفد لغة الضاد وتنميتها بالإغناء والترجمة مما يدفع بها إلى التطور واللحاق باللغات الحية الأخرى الفاعلة في حياتنا الثقافية والعلمية.

فاللغة العربية، بالإضافة إلى مكانتها الخاصة في ثقافتنا وحضارتنا وتاريخنا على مدى أكثر من أربعة عشر قرنا، تشكل أقوى آصرة تجمعنا في مصير واحد ومعترك واحد مع هذه الأمة العربية التي تتوزع إلى اثنتين وعشرين دولة، في بقعة جغرافية شاسعة تمتد من غرب إفريقيا إلى تخوم آسيا، كما أنها تهم شعوبا أخرى لا تنطق بالعربية ولكنها تدين بالإسلام وتعد بمآت الملايين ممن يجعل الكعبة قبلته ويجعل من القرآن دستوره.

هذه اللغة إذن جديرة بكل إجلال وإكبار، خصوصا إذا كانت بماضيها المشرق وحاضرها المتحفز تملك من أسباب النمو والحياة ما هو كفيل بأن يجعلها في مصاف اللغات الحية المعاصرة المتقدمة.

لكننا عندما نلقي نظرة على الواقع الفعلي لحياة هذه اللغة بأوطاننا العربية نلمس عدة إكراهات تحول دون أدائها لوظيفتها الثقافية والحضارية مما أدى إلى مزاحمتها والتضييق عليها بعامل الازدواج أو الهيمنة الموروثة عن العهد الاستعماري الذي كانت فيه موضوع محاربة وهدفا للاستئصال.

وهكذا برزت في العالم العربي هذه المفارقة العجيبة والمتجلية في الدعوة إلى تعريب العرب وكأن العرب ليسوا عربا سوى بالاسم. فإذا كان من باب تحصيل الحاصل عدم القول بأسبنة الإسبان وأمركة الأمريكان . فإننا نحن العرب قد قبلنا فكرة تعريب العرب. وكان هذا من أسباب الإبهام في الحديث عن التعريب وإكراهاته.

فالتعريب مستويات كما نعلم، منه ماله اتصال بالممارسة ومنه ما يتصل بالعلم والتنظير.

– تعريب المحيط والوسط التي تتحرك فيه الأمة العربية

والخلل بادٍ على هذا المستوى في استعمال غير اللغة العربية في الإدارة والتواصل الاجتماعي وفي الحياة المعيشة من تجارة وعادات وتقاليد وأنماط التعبير الفني.

– تعريب الثقافة: وهذا يعني تعريب التعليم أساسا.

في كثير من الدول العربية ما نزال نجد تمسكاً بنظام الازدواج أو الهيمنة في لغة التعليم منذ مرحلة مبكرة من التعليم الابتدائي (بل وفي الروض بالتعليم الخاص)، وبعضها الآخر يلقي خطابا متناقضا يفضح تذبذبه في عملية تكوين الأجيال العربية، مع أن الحقائق العلمية والتربوية تقرر أن التعليم في مرحلة التكوين والتثقيف (الأساسي والثانوي) لا يمكن أن يكون بغير اللغة القومية. وكما لاحظنا أن الشروط الموضوعية لتعريب المحيط غير متوفرة، كذلك تعد الاستجابة العفوية للمشاعر القومية وحدها لا تكفي لإرساء

استراتيجية جادة لعملية التعريب باعتباره أساس التكوين المتكامل للمواطن العربي. فالمواطنة تعني الحياة والاندماج في وطن محدد وفي مجتمع محدد، يعد الفرد عنصرا من نسيجه، فكيف يحصل ذلك عندما يتأسس التعليم على الرطانة بلغة أجنبية لا علاقة لها بحياته في المجتمع، فاللغات المتباينة كالثقافات المتباينة قابلة لأن تتحاور وتتناظر ونحن في عصر الاتصال والانفجار الإعلامي، ولكنها لا تتداخل إلى حد الامتزاج، وإذا حصل ذلك تكون الغلبة للغة الأقوى أي لهيمنتها.

فالهيمنة الموروثة المشار إليها تتعارض مع القول بالانفتاح على العالمية من خلال ما يسمى باللغات الدولية الكبرى، كالإنجليزية مثلا، لأنها طرأت في ظروف سياسية وتاريخية معينة ثم استقرت لتشكل واقعا موروثا مثلما حصل في المغرب العربي المحافظ على اللغة الأجنبية، فالاستمرارية اللغوية الأجنبية لا يفسرها تبرير مقنع، والقول باختصار الطريق، طريق التعريب الطويل والشاق باحتضان أداة جاهزة لا يتعارض مع المشاعر القومية للأمة فحسب وإنما يتعارض أيضا مع هذا المنطق الجاهزي، منطق: (Prêt à porter) ذاته عندما يتمسك بلغة لم يعد لها دور في النشاط العلمي وأصبحت ضمن اللغات التي تشكو التخلف في ركب الحضارة المعاصرة.

ونحن نستعير هنا قولة لعالم اللساني جاكوبسون الذي يقول "إن اللغات لا تختلف باختلاف طاقاتها التعبيرية بقدر ما تختلف باختلاف ما يجب أن تعبر عنه" ويقول " من الممكن ترجمة أي كتاب في الفيزياء النووية إلى لغة البامباره أو اللغة الفولانية شريطة القيام بالمجهود اللغوي المطلوب". كما نبه إلى ذلك عضو من أكاديمية المملكة.

ومعنى هذا أن التقدم الذي تفتقده لغة كالفصحى يمكن تعويضه بالترجمة العلمية الدقيقة والمنهجة، وهذا يعصمها من الوقوع في قبضة الهيمنة اللغوية الموروثة(فالتقدم –كما يقول الأستاذ أحمد الأخضر غزال منوط بقيمة الاتصالات وتبادل الخبرات– وأن أحادية اللغة(الفرنسية في حالتنا)ليست محتومة، وحتى بالنسبة للارتماء في أحضان الإنجليزية يراه (نوعا من الاحتتان) ومعناه قبول (خضوع تقييم البحث العلمي لحكم الولايات المتحدة ولاستعداء المجلات الأمريكية الكبيرة، وهذا ما بدأ العالم بأسره يفكر في التخلص منه لأنه في غير صالح للعلم والمعرفة) ومخل بالتقدم العلمي وبقيم الحاجة إلى التواصل وتبادل الخبرات.

والواقع أنه كلما أثير موضوع التعريب أثير إلى جانبه مشكل المصطلح الملائم والموقف من الترجمة، فالتبرير الذي يقدمه دعاة الأداة الجاهزة كثيرا ما يكون انعدام كفاية المصطلحات العلمية في العربية من حيث الكم الذي يجري بوتيرة مذهلة ومتنامية، وكذلك من حيث التنوع أي بتلبية حاجة اللغة العربية من المصطلحات في سائر الميادين العلمية المختلفة. والباحثون العرب من خلال هذا المنظور يجعلون أنفسهم في موقع الاستسلام والهزيمة قبل بداية المعركة، فاستدراك ما لاحظوه من نقص يتم من وجهتين:

أولاً: عن طريق التعليم العلمي الذي يجب أن يبدأ ويستمر إلى نهاية المطاف بالتعليم العالي باللغة العربية الذي يتولد عنه حتما الإنتاج باللغة العربية والبحث والترجمة للاتصال بالخبرات الأخرى. ومشكل القصور في تتبع حركة إنتاج المصطلحات ليس مقصورا على العربية وحدها ويمكن التغلب عليه بالترجمة العلمية الدقيقة، فالتعريب الذي تؤازره الترجمة في معظم اللغات الأساسية وهذا من شأنه تعدد المراجع وتنوع المصادر واتساع مجال النقل. وهذا في نظر أحد الباحثين منطلق الخلق والإبداع.

ثانيا: أن مفهوم "العلم " تغير في عصر الانفجار المعلوماتي والعولمة (أصبح ينتمي إلى الماضي– كما يقول أ. المنجرة– ولم يبق العمل جاريا به) ، يقول: (لقد دخلنا في ما يسمى بمجتمع معرفي Une société du savoir وعلى حسب تقدير (رايت) فإن 90% من المعرفة كلها ناتجة عن عمل 30 سنة الأخيرة. ثم يستشهد بروني هاهو أمين منظمة الأمم المتحدة الأسبق في أن (التنمية تكون حينما يصبح العلم حضارة وثقافة Le développement c'est la science devenue culture. بعد بضع سنين من الآن، يقول: ستكون 90 % من الترجمة آلية عن طريق الحاسوب).

وفي انتظار ذلك نتمنى الرجوع إلى جادة الصواب في سياساتنا التعليمية العربية، لأن الترجمة لا يمكن أن تزدهر إلا إذا اعتنت الأمة بلغتها القومية واستخدمتها في كل مراحل التعليم، فالترجمة محك للمصطلح العلمي الدقيق للابتعاد عن العشوائية والتعدد الذي ينال من الوظيفة الاتصالية لعملية الترجمة، وكما نال إهمال اللغة الوطنية في تكوين المتعلم من حركة الإنتاج الثقافي (العالم العربي كله لا يساهم بأكثر من 1% من الإنتاج العالمي للكتاب) فإن هذا الإهمال قد أثر أيضا في الترجمة (التي يتأرجح إنتاجها بين 300 و 350 سنويا).

نذكر هذا ونحن في معقل من معاقل الترجمة والإعداد التربوي لأساتذة الترجمة ببلادنا، فهم أكثر إلماماً بالموضوع ولن نضيف إليهم جديدا.

ثم إن الحديث عن التعريب وعن الترجمة، فوق هذا وذاك هو حديث عن تحرير العربية من الازدواج اللغوي الذي لا يعني بالضرورة التنكر لأهمية سياسة لغوية مقننة تنبني على الانفتاح على اللغات الأجنبية الحية حسب حاجة المتعلم إليها، بل يمكن أن تكون هذه السياسة أداة للحد من الهدر والتبذير في المال العام للدولة المتمثلة في هجرة الفنيين العرب، فالمتعلم في مناخ لغة أجنبية لا يقف احتضانه لها باعتبارها أداة، وإنما ينجرّ بفعل التأثير الثقافي ليتماهى بمكونات هذه الثقافة. وهذا ما حصل للنخبة المتعلمة التي تهاجر بدعوى انعدام وجود آفاق الشغل ببلدها الأصلي فتنقل مهارتها إلى وطن ثان يتلاءم مع التكوين الجديد: ما الفائدة إذن من صرف الأموال الباهضة في تأسيس المعاهد العليا والكليات المتخصصة ليفر المتكونون بها بعد التخرج لخدمة دول أخرى لم تدفع عنهم من ميزانيتها شيئا.

ومما تستدعيه شروط المروءة قبل الختام أن نتوجه بالشكر والامتنان إلى معالي السيد وزير التعليم الثانوي والتقني لتحفيز المنظمة في شخص جهازها مكتب تنسيق التعريب على الإسهام في هذه التظاهرة مما يفتح الباب على أفق نير من أنماط التعاون بينها وبين الوزارة الموقرة التي يشرف عليها بهمة المخلصين للوطن وبالجدية والصرامة المعهودتين في رجال البحث والعلم من أمثاله.

كما أنه من باب رباط الصدق وذكر الإحسان العائد لأهله تقديم فروض الشكر والتنويه إلى السيد مدير المدرسة العليا للأساتذة الأستاذ بنعجيبة، لما وجدنا لديه من استعداد وحماس وفعالية ومقدرة في كل عمل يخدم مصلحة البحث العلمي بمعهده والدفع بأسباب التكوين التربوي نحو غاياته المنشودة، فالندوة التي نحن بصدد إقامتها بهذا المعهد يحاول المكتب عبرها الاحتكاك بجهود الباحثين ورجال التربية، وهم ثلة من خيرة رجال العلم بهذا المعهد استجابوا بأريحية العلماء لدعوة المكتب إلى جانب الأستاذ الفاضل د.جورج مصري الذي أبى إلا أن يكون واحدا منا في هذه التظاهرة، فله منا أصدق التقدير ولكافة المساهمين أخلص التشكرات.ولا يفوتنا بهذه المناسبة أن نمر دون الإشادة بحسن التنظيم والرعاية الشاملة للسلطات المحلية التي شرفت بحضورها هذا الجمع الكريم، فالشكر البليغ لكل من لبى دعوتنا من السادة الأساتذة وللشباب من رجال التربية والتعليم ممن ساهم بقليل أو بكثير لتحقيق هذا الجمع المبارك ،الذي نتمنى بإذن الله أن يسفر عن نتائج إيجابية تعود بنفعها العلمي على المهتمين بخدمة لغة الضاد، ومع النتائج تحمد المساعي كما يقال، والسلام عليكم ورحمة الله.